

خريطة الطريق: النص ← السياق ← النص

عبد الماجد عبد الرحمن الحبوب *

النقد في المفهوم العامي، ذو دلالة سلبية مركزية تتصل بالتحليل الذي يراد به الوصول للمظاهر والمعاني والقيم السالبة للظاهرة موضوع النقد. ولكن كمصطلح علمي، يُعنى النقد بكل المعاني موجبة وسالبة، والمهم هو تجويد الأدوات النقدية. وفي علم تحليل الخطاب النقدي، تلخص روث وداك (Ruth Wodak) – وهي تعد من مؤسسي هذا العلم وحضرت اجتماع فيينا الشهير(1991) الذي ضم إلى جانبها فان ديك ونورمان فيركلف والذي تمخضت عنه هذه الرؤية الجديدة في النظر إلى اللغة و النصوص: تحليل الخطاب النقدي – معنى نقدي (critical) بعدم التسليم بأي شيء مسبق عن النص أو الظاهرة اللغوية في أي تجلٍ من تجلياتها not taking any thing for granted وتقول إن النقدي بالضرورة هو إشكالي (problem-oriented) وبين أو عبر – معرفي (inter-disciplinary). ومن أهم خصائص هذه الرؤية: تحليل علاقات السلطة في النص واكتشاف طبقات النص الخلفية كبنيته الإيديولوجية، وقياس مدى التداخل والتفاعل العميق بين ما هو خارج النص (عبر التحليل الماكرو macro-analysis) وما هو داخل النص (عبر التحليل المايكرو micro-analysis). فخرطة الطريق هي: النص ← السياق ← النص. فالنص إذاً، هو نقطة البداية ونقطة النهاية في الآن معاً. والسياق في شتى تجلياته التاريخية والثقافية والمجتمعية وسيرة المؤلف يبقى مهماً وضرورياً، ولكنه ليس هو بداية الطريق ولا ينبغي أن يكون هو محطة النهاية، وإنما يأخذ قيمته بقدر مساحة الجدل بين تشكيله للنص وتشكيل النص له. وهكذا فأفضل وأعمق التحاليل النقدية هي تلك التي توازن بين أدوات التحليل المايكرو (درس حالة النص الداخلية/بنيته) والتحليل الماكرو (درس مكونات النص الخارجية).

المجذوب وأصمعيات كبلو

مسألة الأحكام النقدية السالبة والقاسية أحياناً، اتصلت بالنقد منذ القدم. ومهما يكن من حال، هي تظل وجهاً من وجوه النقد (بمفهومه العام) وهي تبقى مسألة تفضيل وخيار للنقاد. ولعلها، تلبي شرط وداك في رفض ما يبدو من المسلمات. وفي النقد العربي كان يعتقد لوقت طويل أن كتاب بن سلام الجمحي (ت 232هـ) (طبقات فحول الشعراء) هو أول كتاب في النقد العربي، مثلما يعد (فن الشعر) لأرسطو تدشيناً للنقد في التاريخ. ولكن ظهر من حقق كتاب الأصمعي (ت 216هـ) (فحولة الشعراء)،

فاتضح أنه هو الكتاب المؤسس للنقد العربي. وفي هذا الكتيب الصغير، يبدو الأصمعي وهو الذي وصفه هارون الرشيد "بشيطان الشعر" وروى عنه أنه كان يحفظ ما بين عشرة آلاف إلى ستة عشر ألف أرجوزة، قاسياً للغاية وهو يطلق الأحكام على شعراء بحجم الأعشى وزهير بن أبي سلمى. إذ لم يضع الأعشى ضمن طبقة الفحول، وقال عن زهير أنه "لا يصلح أن يكون أجيراً للنابغة". وخلال فورة النقد العربي في العهد العباسي تعرض كبار الشعراء لنيران لا ترحم (المتنبي وأبو تمام مثلاً). ومثل هذه الأحكام موجود أيضاً في النقد الأوربي. فالانجليزي الشهير هاردي تحول من الرواية إلى الشعر بسبب لسعات النقاد الحارة عن رواياته. وعُرضت رواية حقل الحيوان (*Animal Farm*) لجورج أورويل على ت. س. البيوت قبل نشرها، فرأى أنها لا تصلح للنشر، إذ- في زعمه- كلها خنازير (وفي 2005، صنفها مجلة التايم ضمن أفضل مائة رواية كتبت باللغة الانجليزية).

هذه الأحكام القاسية تذكر بما أطلقه الأخ محبوب كبلو من أحكام وإفادات في حق الشاعر الكبير محمد المهدي المجذوب. وهي أحكام بدت قاسية جداً للكثيرين وذلك نسبة لأن المجذوب بمثابة مسلمة من مسلماتنا الإبداعية. إذ اختصره كبلو في الطرفة ورأى أنه لا يعدو كونه شاعراً مستظرفاً وأن "الطرفة" هي مفتاح شعريته. الأمر الذي استدعى ردود فعل قوية، خاصة من الشاعر المبدع الصادق الرضي. ومما زاد من قوة ردود الفعل، أنه مستقر لدينا أن المجذوب كان نزاعاً نحو التجديد وشعره ملفوف دائماً بأجواء ومناخات سودانية - صوفية (قصيدة المولد وقصيدة انطلاق، شحاذ في الخرطوم، الشرافة والهجرة، نار المجاذيب) وظللت شعره غالباً واقعية لطيفة متدثرة أبداً بحرارة الوعد الصوفي (الواقعية-الصوفية). ويأخذ المجذوب قيمته أيضاً، من حجم أثره المستمر في أجيال متعاقبة من مبدعي السودان، خاصة أجيال الستينات والسبعينات (لا حظ مثلاً اعتزاز الناقد مجذوب عيروس الشديد به).

يظل المجذوب شاعراً كبيراً ومحط اعتزاز غالب شعرائنا ومبدعينا ونقادنا. ولكن، في الوقت ذاته تبقى أحكام كبلو مشروعة حالما وضعت في ميزان النقد وتاريخه. والنصوص الكبيرة (النصوص المفتوحة) تظل كبيرة بقدر ما تثير من جدل وبسعة ما تتيحه من متعدد الخيارات القرائية والتحليلية.

مع هارولد بلوم: المنهج هو القارئ

يعد الناقد الأمريكي هارولد بلوم (بروفسور في جامعة ييل) من أبرز النقاد العالميين المعاصرين. وسبق أن استعرضنا نظريته النقدية التي عُرف بها وهي نظرية مكونة من مفهومين: مفهوم يتعلق بما أسماه "قلق التأثر" (*Anxiety of Influence*) ويتصل المفهوم الثاني بسوء القراءة (*Misreading*). المفهوم

الأول يتمركز حول العلاقة المنتجة والمتفاعلة/المتصارعة بين أجيال المبدعين . فالمبدع مسكون بدرجة من القلق تجاه مبدع سابق له أو سلسلة من المبدعين السابقين ويخشى دائماً ألا يضيف شيئاً أو أن يقع في فخ تكرار أو اجترار الذات الإبداعية الجمعية (collective-self rumination). وبالنسبة لبloom، هذا القلق ضروري لتفعيل عملية الخلق الفني . بل هو وقود الإبداع الذي لا ينضب. أما المفهوم الثاني (سوء القراءة) فيرتبط بعملية القراءة الفعّالة للنص (وكلمة سوء هنا ذات دلالة مصطلحية تتوكأ على الإيجابي أكثر من السلبي) . وهذه عملية معقدة ، يعتقد Bloom أنها مما يجعل الإبداع ممكناً . وكما رأينا من قبل، فإن النظرية برمتها متناغمة مع مقولات ومفاهيم التناص الواسع (راجع المقالات السابقة) . بيد أن Bloom لا يرى نفسه مرتبطاً، مع التفكيكية و لا التأويلية (الهيرمونيطيقية) ولا يحس بصلته الواضحة بفرويد (هل هو قلق التأثر؟). ولكنه شديد الاعتراف بالتأثر بامرسون (Emerson)، وذلك بسبب مقولات امرسون حول القراءة و في أن القارئ يأتي أولاً ثم يأتي النص.

في أحد أهم لقاء له قبل سنوات مع الين سبايرر (Ellen Spierer) في (البسوستون ريفيو) يدلي Bloom ببعض الأفكار والإفادات النقدية المهمة . فقد رفض التنبؤ بمستقبل النقد الأدبي في أمريكا ولكنه قال أن الشعر الأمريكي الحالي أفضل من النقد. وبدا في الوقت ذاته غير مؤمن بأي فصل حاد بين الأدب والنقد. ويقول أن الثقافة الغربية هي ثقافة أدبية في الأساس منذ الشاعر الإغريقي هومر. وعن أفضل مبدع غربي حي، يقول انه سامويل بكييت بلا منازع (كان بكييت حيا وقت الحوار)، لأن بكييت في رأيه هو الأكثر أصالة (the most authentic). ومن الشعراء والروائيين الأمريكيين المعاصرين يمتدح Bloom بشدة: توماس بينكون وميرن ووارن وآشيري.

على أن أهم ما قاله Bloom في هذا الحوار حينما سئل عن المنهج، هو ألا منهج على الإطلاق سوى القارئ. ويرى أن من أبرز عيوب النقد المعاصر تركيزه على المنهج، إذ يقول (كما قلت مراراً، لا منهج سواك أنت - بغض النظر عن من أنت. وحقيقة، ما يسمى بالتفكيكية ليس سوى نهجاً شخصياً وذاتياً للغاية، هو بالضبط ذات صديقي جاك دريدا). ولذلك يرى Bloom أن الشخص الوحيد الذي في استطاعته تطبيق المنهج التفكيكي هو دريدا نفسه .

هارولد Bloom ناقد شديد الأهمية بالنسبة لحركة الفكر النقدي العالمي . ولكن، نلاحظ عليه أنه هو نفسه التطبيق الفعلي لنظريته في قلق التأثر وسوء القراءة، كما يظهر في محاولاته التي لا تكل لنفي تأثيرات الآخرين . وتجلى ذلك أيضا في قراءته الذاتية (idiosyncratic) للتفكيكية. فالمكان الأفضل لنظريته النقدية في مجرى الفكر النقدي العالمي هو اعتبارها رافداً مهماً من روافد نظرية "نقد القارئ" (لا

أفضل مصطلح التلقي بسبب تداعياته التربوية السلبية) (Reader-response/Reader-oriented theory). وهذه نظرية مهمة في النقد نشطت بشكل خاص منذ السبعينات ومن أهم رموزها ستانلي فيش (Stanly Fish) وأمبيرتو ايكو في كتابه (دور القارئ) الذي فرق فيه بين نوعين من النصوص: (النصوص المفتوحة open-texts وهذه تتطلب دوراً فاعلاً ونشطاً من القارئ لكي يكتمل النص، ومثل لها بالأرض اليباب (Waste Land)، والنصوص المغلقة closed- texts، وهذه لا تعطي القارئ مساحة مهمة لصناعة وتشكيل معنى النص ومثل له بنص لأجاثا كريستي . وفي نظر نورمان هولند وديفيد بليك، القراءة هي ضرب من ضروب تحقيق الرغبات. وفي ذات الاتجاه، طرح ريفاتير مفهوم القارئ السوبر (Super-reader) الذي يمثل جملة ردود الفعل تجاه النص. وهناك أيضاً مفهوم "أفق التوقعات" (horizon of expectations) الذي صاغه هانس روبرت جوس وهو الذي أشار إليه الأستاذ عيسى الحلو في مقاله في هذه الصحيفة (مسئولية تطوير الرواية من مسئولية القارئ أيضاً، 25 يونيو 2008).

نظريات هارولد بلوم وإفاداته في هذا الحوار، تشير إلى الأهمية المتصاعدة لدور القراءة في نقد النصوص بشكل عام والنصوص الإبداعية، بشكل أدق. ويا ليت طلاب الدراسات العليا ومراكز البحث في جامعاتنا لو ينجزون مشاريع بحث تهدف إلى دراسة استراتيجيات القراءة والأساليب المختلفة التي يتبعها النقاد والقراء الأذكياء في قراءة وتحليل النصوص الأدبية.

* د. عبد الماجد عبد الرحمن الحبوب، كاتب وأكاديمي سوداني مقيم في السعودية، جامعة القصيم.